مجلة وادى النيل للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية والتربوية

الفوضوية المعرفية في فلسفة العلم المعاصرة
قراءة في كتاب بول فيرابند "ثلاث محاورات في المعرفة"

د. محمد أحمد السيد
أستاذ المنطق وفلسفة العلوم بجامعة الكويت

ملخص:

يُعد بول فيرابند واحدًا من أهم فلاسفة تيار ما بعد الوضعية المنطقية، وهو فيلسوف متفرد لا نظير له في تاريخ الفكر الفلسفي. القراءة المتعجلة لكتاباته تنتهي بالقارئ إلى اعتباره عدوًا للعلم والمنهج العلمي، خاصة أن عناوين كتبه قد توحي بذلك، لكن القراءة المتأنية الشاملة لكتاباته تظهر لنا فيلسوفًا فريدًا يدافع عن العقلانية والتفكير الناقد. إن كتابات بول فيرابند تتجاوز حدود التخصصات الضيقة. قدم فيرابند نفسه منذ البداية باعتباره مُفكرًا حرًا مستقلًا عن معلميه وأساتذته الكبار الذين درس عليهم وعمل إلى جوارهم بما فيهم كارل بوبر. لعل أحد أسباب كراهته لمعظم تيارات لفلسفة المعاصرة يرجع إلى افتقارها لوجود مفكرين يستطيعون اختراق حدود التخصصات الضيقة وتجاوزها إلى آفاق أكثر رحابة من أمثال إرنست ماخ، وبولتزمان، وأينشتين وغيرهم. سأحاول في هذا البحث أن أدافع عن فكرة تتعارض مع ما هو شائع عن هذا الفيلسوف. فالمعروف عن فيرابند أنه يزعم دائمًا أنه لا يقبل أية قواعد منهجية، وأن لا مكان لوجود الأفكار المنهجية التقليدية من قبيل الموضوعية والعقلانية في فلسفته، بل لا وجود لها في العلم أو غير العلم أيضًا، غير أنني أزعم أن هناك بعض القواعد المنهجية الراسخة التي يأخذ بها فيرابند ويدعونا إلى تبنيها، وأهمها مبدأ وفرة النظريات ومبدأ التشبث.

الكلمات المفتاحية:

الوضعية المنطقية– كارل بوبر – ضد العلم– العقلانية– النظريات العلمية.

(ISSN: 2536- 9555)

Abstract

Paul Feyerabend is considered one of the most important post-positivistic philosophers, and he is a unique and unparalleled philosopher in the history of philosophical thought. A hasty reading of his writings ends up with the reader considering him an enemy of science and the scientific method, especially since the titles of his books may suggest this, but a careful and comprehensive reading of his writings shows us a unique philosopher who defends rationality and critical thinking. Paul Feyerabend's writings transcend narrow disciplinary boundaries. From the beginning, Feyerabend presented himself as a free thinker independent of the great teachers he studied and worked alongside, including Karl Popper. Perhaps one of the reasons for his dislike of most currents of contemporary philosophy is due to their lack of thinkers who can penetrate the boundaries of narrow disciplines and transcend them to broader horizons such as Ernst Mach, Boltzmann, Einstein and others. In this research, I will try to defend an idea that contradicts what is commonly known about this philosopher. What is known about Feyerabend is that he always claims that he does not accept any methodological rules, and that there is no place for traditional methodological ideas such as objectivity and rationality in his philosophy. Indeed, they do not exist in science or non-science as well. However, I claim that there are some well-established methodological rules that he accepts. Feyerabend calls on us to adopt them, the most important of which are the principle of abundance of theories.

مجلة وادى النيل للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية والتربوية

الفوضوية المعرفية في فلسفة العلم المعاصرة

قراءة في كتاب بول فيرابند "ثلاث محاورات في المعرفة"

د. محمد أحمد السيد

أستاذ المنطق وفلسفة العلوم بجامعة الكويت

مقدمة:

اكتسب بول فيرابند شهرته التي طبقت الآفاق من نزعته النسبوية وهجومه الحاد على قواعد المنهج العلمي. لقد هاجم فيرابند المنهج العلمي والكثير من العلماء وفلاسفة العلم هجومًا ضاريًا، بل وهاجم فكره العقلانية ذاتها، ودافع- أو هكذا يبدو- عن التنجيم والسحر والأسطورة واللاعقلانية؛ وهى أمور تؤدي إلى البلبلة وسوء الفهم خاصة في ظل المناخ الفكري السائد لدى كثير من غير المتعلمين، وعلى وجه التحديد في بلادنا وهو أمر لا يحتمل ترف مثل هذه المناقشات. فقد يتسرع القارئ ويضع فيرابند، والمدافعين عنه، في خندق واحد مع المشعوذين والرجعيين واللاعقليين. غير أنني أرى، وسأحاول أن أبرهن، على أننا إذا تجاهلنا أفكار هذا الفيلسوف المبدع فإننا نتجاهل جانبً مهمًا ومؤثرًا من النقاش الدائر في مجال ما يسمى بفلسفة علم ما بعد الوضعية. كما أزعم أن القراءة المتأنية لأعمال فيرابند سوف تظهر لنا أنه باستثناء نسبة بسيطة من عباراته التي يغلب عليها الطابع الخطابي واللجوء إلى استخدام شعارات رنانة مدوية كثيرًا ما يكون قد اصطنعها متعمدًا، فإن جزءًا لا يستهان به من تلك الأقاويل تمثل حججًا وبراهين منطقية محكمة.

ولا يعني هذا القول إنني سأدافع عن كل آراء ومواقف فيرابند، وإنما أزعم أننا نستطيع أن نقبل هجومه على العلم والعلماء باعتباره بغرض تقديم "وصفة" لعلاج أمراض فلسفة العلم المزمنة، وهو أمر أشار إليه فيرابند نفسه في أكثر من موضع من كتاباته.

من هنا سأحاول في هذا البحث أن أدافع عن فكرة تتعارض مع ما هو شائع عن هذا الفيلسوف. فالمعروف عن فيرابند أنه يزعم دائمًا أنه لا يقبل أية قواعد منهجية، وأن لا مكان لوجود الأفكار المنهجية التقليدية من قبيل الموضوعية والعقلانية في فلسفته، بل

(ISSN: 2536- 9555)

لا وجود لها في العلم أو غير العلم أيضًا، غير أنني أزعم أن هناك بعض القواعد المنهجية الراسخة التي يأخذ بها فيرابند ويدعونا إلى تبنيها، وأهمها مبدأ وفرة النظريات ومبدأ التشبث. كما أن فيرابند يتحدث أحيانا عن ضرورة إتاحة الفرصة أو السماح للنظريات العلمية "بمساحة للتنفس"، أن صح التعبير. سأحاول أيضا أن أعرض ما أظنه التفسير الأقرب إلى الصحة لفلسفة فيرابند، وهو ما سوف يدعونا إلى رد هذه الفلسفة إلى مصادرها الأصلية عند شكاك اليونان خاصة بروتاجوراس والتي نهل منها فيرابند.

اخترت أن أقدم تحليلًا لفلسفة فيرابند من خلال ترجمة أحد أعماله غير الرائجة، وهو كتابه "ثلاث محاورات في المعرفة". وقد اخترت هذه المحاورات لأقوم بترجمتها إلى اللغة العربية لأسباب عديدة أهمها أنها تعبر عن آراء فيرابند في فترة متأخرة من حياته في فلسفة العلم بكل جوانبها المعرفية والمنطقية والاجتماعية والسياسية، حيث كان هذا العمل هو آخر ما نشر قبل وفاته، وقد صدر له بعد وفاته عملان هما "قتل الوقت" Killing Time، و"طغيان العلم The Tyranny of Science". كما أنني اعتقد أن اختيار طريقة المحاورات في الكتابة الفلسفية مناسب جدا في عرض الحجج الفلسفية بصورة مباشرة لا تثير الملل لدى القارئ وتفتح آفاقا رحبة غير متوقعة أمام المؤلف. فكثيرا ما يتوجه القراء، ومن بينهم المتخصصين، باللائمة على الفلاسفة لاستخدامهم أساليب غامضة وعبارات جافة ولغة صعبة جامدة للتعبير عن المشكلات الفلسفية، ولا يستطيع المرء إلا أن يتعاطف أحيانا مع هذه الشكوى. ومن هنا لاقت كتابات بعض الفلاسفة التي جاءت في صورة عمل أدبي كالرواية أو المسرحية أو القصيدة الشعرية نجاحًا ملحوظًا وانتشارا واسعًا. غير أن هناك مشكله تواجه هذا اللون من الكتابة، فالكتابة ذات الطابع الأدبي، سواء جاءت في صورة رواية أو مسرحية أو قصيدة، تظل عاجزة عن التعبير عن مشكلات فلسفية ذات طابع نسقي منظم، أو عن مشكلات ذات طبيعة منطقية، ينتقل فيها الكاتب من مقدمات إلى نتائج ويناقش قواعد محددة قد تجور على البناء الفني للعمل الأدبي. ولك أن تتخيل هيجل يحاول أن ينظم نظريته في التاريخ والمطلق في صورة قصيدة، أو كانط يحاول أن يسرد الاختلاف بين عالم الأشياء في ذاتها وعالم الظواهر في شكل رواية، أو برتراند رسل يشرح تطور المنطق والرياضيات في مسرحية! غير أن المحاورة يمكن أن تفي بكل هذه الأغراض مجتمعة. ففي المحاورة

يستطيع الفيلسوف أن يعرض أفكاره على لسان المتحاورين في صورة مقتضبة أو مطولة، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ويستطيع أيضا أن يعرض للمذاهب أو الأفكار المختلفة مؤيدًا أو مفندًا، دون اللجوء إلى الكتابة الجافة المباشرة، بل يستطيع أن يستخدم بعض التعبيرات الأدبية التي تضفي على العمل بعض الألفة والتشويق الذي كثيرًا ما نستشفه من رغبة القارئ في معرفة ما انتهى إليه الحوار بين المتحدثين. كما تتميز المحاورات أيضا بأنها بالإضافة إلى قدرتها في معظم الأحيان، على عدم إثارة ملل القارئ، في أنها تمكن المؤلف من شرح أفكاره في تسلسل منطقي مهما كانت الحجج المستخدمة طويلة أو معقدة، وهو أمر يصعب تطبيقه في المسرحية أو الرواية دون إثارة ملل القارئ أو المشاهد أو التضحية بالعناصر الفنية في بناء العمل الأدبي.

وعلى الرغم من مزايا المحاورة التي أشرت إلى بعضها إلا أن هناك بعض المحاذير التي ينبغي أن نكون على وعي بها عند قراءة المحاورة. لعل أهم هذه المحاذير هي أن المؤلف يتحدث عادة بلسان الجميع دون تحديد. فهو يتحدث تارة عن نفسه، أي عن أفكاره الشخصية، وتارة أخرى عن آراء المعارضين. وتكمن المشكلة في أنه قد يختار من بين آراء المعارضين ما يسهل تفنيده أو الرد عليه، وقد يترك، بقصد أو غير قصد، حججا قوية لها وجاهتها دون إجابة أو عرض. ومن المشكلات الأخرى التي تواجه المحاورة كأسلوب في الكتابة الفلسفية هو عدم وجود خط واضح بين الحقيقة والخيال، فالكاتب كثيرا ما لا يصرح بأنه أحد الأشخاص الموجودين في المحاورة، وهل هو يعبر عن أفكاره أم لا. لقد تكررت مثل هذه المشكلات مع محاورات أفلاطون، وسوف يجد القارئ أن هذه المشكلات تتكرر هنا أيضا مع فيرابند. فعلى الرغم من زعم فيرابند بأنه ليس الشخص الأساسي في المحاورة الأولى، إلا أن القارئ سيدرك بعد قراءة بعض سطور منها أن "دكتور كول" في المحاورة ليس سوى بول فيرابند نفسه.

بقي أمر أخير أريد أن أنبه القارئ له، وهو أن فيرابند لا يلتزم كثيرًا في كتابته للمحاورات بالطريقة المتعارف عليها في الكتابة الأكاديمية، فهو يتحدث أحيانًا دون توقف ودون مراعاة لأصول الكتابة من وقفات وفقرات وغيرها، كما أنه يميل كثيرا للغموض في عرض أفكاره. وهو يتعمد ذلك بالطبع، فهو في دعوته للتحرر من قيود

(ISSN: 2536- 9555)

المنهج العلمي وغيره من القيود أراد أيضا أن يحرر نفسه حتى من القيود التقليدية في الكتابة رافعا شعاره المعروف كل شيء يمر.

لقد كان فيرابند واحدًا من أكثر الفلاسفة إثارة للخلاف في مجال فلسفة العلم. بل لعلني أقول إنه من أكثر الأشخاص الذين لاقوا ردود فعل متباينة ومتعارضة في تاريخ الفلسفة برمته، فقد امتدحه البعض امتداحا شديدًا، وكان من بين المقرظين علماء مرموقين وفلاسفة يشار إليهم بالبنان، باعتباره باحثا مجددًا له رؤية ثاقبة غير تقليدية في تاريخ وفلسفة العلم. كما انتقده الكثيرون، عن علم أو جهل، باعتباره ألد أعداء العلم. ورفض الكثيرون أفكاره باعتباره دجالاً مشعوذا يدعونا إلى العودة إلى قرون الظلام والتخلف. وأحبه أيضا الكثيرون لنزعته الإنسانية واستقلاله الفكري وتعاطفه مع أصحاب الثقافات المستضعفة أو الهامشية. وكما أحبه الكثيرون فقد مقته الكثيرون أيضا لنزعته النسبوية ونقده اللاذع وعباراته النقدية المؤلمة. وليس من شك في أن كل هذه الأمور تضمن النجاح لأي أستاذ بصفة عامه ولأستاذ الفلسفة بصفة خاصة(١).

وقد أنهى فيرابند قبيل وفاته بفترة قصيرة سيرته الذاتية التي كتبها وهو في المستشفى بعنوان قتل الوقت Killing Time، والتي صدرت باللغة الإنجليزية بعد وفاته.

وسوف أحاول في هذا البحث القصير أن أعرض لأهم أفكار فيرابند مع محاولة تقييم هذه الأفكار في محاولة للإجابة عن طبيعة فكر هذا الفيلسوف المحير الذي اختلف حوله الكثيرون وتأرجحت مشاعري الشخصية أمامه بين الحب والإعجاب والتحفظ!

مدخل لدراسة فلسفة فيرابند:

ولد فيرابند في فيينا عام ١٩٢٤. وبعد أن أكمل المدرسة الثانوية هناك التحق بالجيش الألماني، وقد أصيب عام ١٩٤٥ أثناء الحرب العالمية الثانية برصاصة في العمود الفقري أصيب بعدها بشلل في الجزء الأسفل من جسمه تسبب في عدم مقدرته

(١) اعتمدنا فى عرض بعض جوانب حياة فيرابند على التأبين الذي كتبه هيون بعد وفاته بعنوان:
Paul Hoyningen- Huene: Obituary of Paul K. Feyrabende (1924-1994) Erkenntnis, 1994, P.289.

على السير بقية حياته إلا بمساعدة عصا يتوكأ عليها. وقد التحق فيرابند بمعهد فيمار **Weimar** في ألمانيا حيث درس الإنتاج المسرحي وتاريخ المسرح والغناء. وكان اليساريون يلعبون في ذلك المعهد مسرحيات **بريخت** حيث يقوم المشاهدون بعد انتهاء العرض بمناقشة وتقييم العروض التي شاهدوها. ثم درس في الفترة بين عام ١٩٤٦-١٩٥١ التاريخ والفيزياء وعلم الفلك. واشترك في تلك الآونة في تأسيس نادي للفلسفة تحت اسم "دائرة كرافت" نسبة إلى فيكتور كرافت أحد أعضاء دائرة فيينا **Vienna Circle** المعروفين. وقد قابل في تلك الآونة أيضا الفيزيائي المنشق فيلكس إهرنهافت **Flix Ehrenhaft** وانبهر بكتاباته ورغبته الشديدة في اتخاذ موقف غير تقليدي يغاير ما هو سائد في علم الفيزياء. وكانت له أيضا اتصالات بالعالم والفيلسوف المعروف فيليب فرانكPhilipp Frank، وتقابل أيضا مع الفيلسوفة الإنجليزية اليزابيث أنسكومب Anscombe، التي كانت تدرس اللغة الألمانية توطئة لترجمة بعض أعمال فتجنشتين. وقد تأثر فيرابند منذ تلك الآونة بفكرة فتجنشتين التي يذهب فيها إلى أن المبادئ العامة المقبولة قد تتغير من جيل إلى جيل، بل وقد يعتورها تغير جوهري من لغة إلى أخرى ومن ثقافة إلى ثقافة.

وقد حصل فيرابند على درجة الدكتوراه عام ١٩٥١، وبعد فترة قصيرة قضاها في دراسة فلسفة العلم في كوبنهاجن وستوكهولهم وأوسلو سافر إلى إنجلترا عام ١٩٥٢ ليدرس مع كارل بوبر في مدرسة لندن للاقتصاد والسياسة المعروفة. London School of Economics وكانت خطته الأساسية قبل ذلك أن يدرس مع فتجنشتين الذي رحل عن الحياة قبل ذلك بفترة وجيزة عام ١٩٥١.

وقد انبهر فيرابند بكارل بوبر منذ أن قابله أول مرة عام ١٩٤٨، وهو يخبرنا أن فكرة أو مبدأ القابلية للتكذيب Falsifiability Principle، وهى الفكرة المحورية في فلسفة بوبر، كانت تؤخذ في دائرة كرافت، التي أسسها فيرابند كفكرة مسلم بها دون نقاش. غير أن هذا الانبهار بفلسفة بوبر لم يستمر طويلاً، بل تعرض لتغير درامي فيما بعد، حتى أننا نستطيع أن نقول أن جانبا كبيرا من فلسفة فيرابند أضحى يتعلق بدحض أفكار بوبر حتى وصل به الأمر إلى اعتبار تلك الفلسفة أكبر عائق أمام تقدم العلم. ثم حصل على إجازة من جامعة بريستول **Bristol** بإنجلترا درس فيها فلسفة فتجنشتين وميكانيكا الكم.

(ISSN: 2536- 9555)

ويعبر فيرابند عن أفكاره في تلك الآونة بعبارات تنم عما ستؤول إليه هذه الأفكار في المستقبل:

لقد اكتشفت أن مبادئ الفيزياء الهامة تقوم على افتراضات منهجية يتم تجاوزها مع تقدم علم الفيزياء، فالفيزياء وإن كانت تستمد سلطتها من تلك الأفكار، غير أنه لا يؤخذ بها أبدا أثناء البحث الفعلي. (Oldryod,1986, P. 335)

وقد رحل بعد ذلك فيرابند إلى بيركلي بالولايات المتحدة الأمريكية ليعمل أستاذا بجامعة كاليفورنيا، وقد استقر به المقام هناك حتى تقاعده عن العمل عام ١٩٩٠. وهناك أخذ يكرر مجموعة من الأفكار ظلت حتى نهاية حياته العمود الفقري لكتاباته، حيث بدا ناقما على النظام التعليمي الغربي منذ البداية:

لقد كانت وظيفتي تتلخص في أن أنفذ السياسات التعليمية لولاية كاليفورنيا وكان ذلك يعني أن أقوم بتلقين الناس ما تعتقد شرذمة من المثقفين أنه المعرفة. ولم أفكر بعمق في مهام تلك الوظيفة التي ما كنت آخذها مأخذ الجد لو علمت بها. (Feyrabend, 1968, P. 118)

ولقد تقلد فيرابند مناصب علميه عديدة، كما عمل في أماكن كثيرة منها، على سبيل المثال، مينابوليس Minneapolis ويل Yale بالولايات المتحدة، وأوكلاند بنيوزيلندا، وبرلين ولندن، وكسل بألمانيا. وظل يشغل منصب أستاذ الفلسفة بجامعة بركلي بالولايات المتحدة ومعهد ETH بزيورخ بسويسرا في نفس الوقت حيث ظل يدرس بالجامعتين صيفاً وشتاءً من عام ١٩٨٠ وحتى تقاعده عام ١٩٩٠.

اكتسب فيرابند شهرته الأولى المبكرة عن أعماله في فلسفة الفيزياء، خاصة ميكانيكا الكوانتم. وقد كان واحداً من أوائل الفلاسفة المحترفين الذين عالجوا مفهوم التتمة(٢) عند **بور** Bohr's notion of Complementarity ولم يهتم فيرابند كثيرا في بدايات دراساته بتاريخ العلم، وإنما اهتم ببعض المشكلات التقليدية من قبيل التمييز بين الحدود النظرية وحدود الملاحظات، ومشكله العقل والجسم، ومشكلة إمكان صياغة المذهب الامبريقي بصورة متسقة. أما أهم بحث نشر له في تلك الفترة فهو المقال الذي نشر له

(٢) مبدأ التتمة أو التكامل يقصد به استخدام النظريتين الموجية والجسيمية معا مع التأكيد على أن صدق إحداهما لا يؤدى بالضرورة إلى كذب الأخرى.

عام ١٩٦٢ والذي تحدث فيه عن مفهوم اللاقياسية incommensurability، والذي استخدمه للرد على أصحاب النزعة الردية reductionism[٣] التي كانت سائدة آنذاك بين فلاسفة العلم.

ويمكنني القول أن جانبًا كبيرا من الأفكار التي سادت عن مفهوم اللاقياسية في فلسفة العلم خاصة عند **توماس كون وإمري لاكاتوش** Lakatos وغيرهما يرجع الفضل فيها في واقع الأمر إلى أفكار ومعالجات فيرابند المبكرة في هذا الموضوع. وقد شرع فيرابند بعد ذلك في كتابة عدة أبحاث يروج فيها لفكرة وفرة أو تعدد الأفكار proliferation of ideas، وهي أحد الأفكار المركزية في فلسفته، كما سيتبين لنا.

ويعتبر كتاب "ضد المنهج: خطة لنظرية فوضوية في المعرفة"، والذي نشر للمرة الأولى عام ١٩٧٥ أهم أعمال فيرابند. وقد كان في نية فيرابند أن يقوم بعرض أفكاره الأساسية في مجال فلسفة العلم في هذا الكتاب، ثم يقوم **لاكاتوش** بالرد عليها في نفس الكتاب، غير أن الوفاة المفاجئة للاكاتوش أحالت دون إتمام ذلك المشروع. وقد جاء هذا الكتاب ليعيد الحيوية إلى المجال الضيق لفلسفة العلم وليضفي عليها طابعًا جديدًا غير مألوف أو مسبوق.

وقد ترجم ذلك الكتاب إلى حوالي سبع عشرة لغة حتى عام ١٩٩٤، وصدرت منه طبعتين منقحتين عامي ١٩٨٨ وعام ١٩٩٣، غير أن أفكار فيرابند في هذا الكتاب أثارت حفيظة الكثير من المشتغلين بالعلم والفلسفة معا. ولعل أشد نقد تعرض له فيرابند جاء من جوزيف أجاسي Agassi الفيلسوف اليهودي المعروف، والذي لا يخلو نقده لفيرابند، في تقديري، من أسباب غير موضوعية مرجعها بعض تلميحات غير محددة وجريئة من فيرابند قد يفهم منها تعاطفه مع بعض أفكار هتلر أيام الحرب العالمية الثانية[٤].

---

[٣] النزعة الردية: هناك معان عديدة لكلمة الرد تختلف باختلاف المذهب الفلسفى الذي يتحدث عنها. لمزيد من التفاصيل حول مفهوم الرد ارجع إلى: د. محمد مهران، فلسفة برتراند رسل. دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩ ص ص ٣٣٦-٣٤١.

[٤] انظر فى ذلك مقال أجاسي: Agassi, J., As You Like It: hate is never justified حيث يعترض أجاسي على هجوم فيرابند غير المبرر (فى رأيه) وعلى بعض

(ISSN: 2536- 9555)

يتكون كتاب "ضد المنهج"، من جزئين أساسيين: **الأول** يعالج قضايا ابستمولوجية ومنطقية، أما **الثاني** فيتعلق ببعض النتائج السياسية والاجتماعية المترتبة على الجزء الأول، وهو اتجاه يندر أن تجده عند من يكتبون في مجال فلسفة العلم. ويكفي أن أقول لك ارجع إلى كتابات هانز ريشنباخ أو كون أو كارل همبل أو غيرهم فلن تجد ارتباطاً وثيقاً بين كتاباتهم في فلسفة العلم وكتاباتهم في المجالات الأخرى، أو لن تجد نتائج سياسية أو اجتماعية أو بيئية تترتب على كتابتهم في فلسفة العلم. بل حتى كارل بوبر أو برتراند رسل اللذان عالجا مشكلات اجتماعية وسياسية من النمط الذي عالجه فيرابند، جاءت كتابتهما في هذه المجالات في الغالب الأعم منفصلة عن كتابتهما في فلسفة العلم(٥).

وقد طور فيرابند آراءه التي أوردها في هذا الكتاب في أعمال أخرى أهمها العلم في المجتمع الحر Science in a Free Society الذي نشر عام ١٩٧٨، ثم وداعاً للعقل Farewell To Reason والذي نشر عام ١٩٨٧. وقد ناقش في هذين الكتابين فكره التعدد أو التنوع الثقافي والمذهب النسبي، وحاول في الكتاب الأخير أن يدعو لوجهة نظر عامة لا يكون فيها لثقافة معينة (خاصة الثقافة الغربية) دور محوري أو مميز، وإنما يكون لكل ثقافة دورها الفعال المؤثر المسموع من أصحاب الثقافات الأخرى. وسنحاول في السطور القادمة تحليل أهم آراء فيرابند التي آثرت تقسيمها إلى شقين؛ يختص الشق الأول بنقده لقواعد المنهج العلمي أما الشق الثاني فيتعلق بالمشكلات السياسية والاجتماعية المترتبة على الشق الأول.

التلميحات التى قد يفهم منها إعجاب فيرابند بهتلر، والمقال منشور فى كتاب Agassi, J., The Gentle Art of Philosophical Polemics, Open Court, La Salle 1988

(٥) لا أعنى بهذا القول تعارض آراء رسل أو بوبر فى المجالات المختلفة، غير أننى أزعم أنهما لم يعالجا المشكلات السياسية والاجتماعية والبيئية وغيرها فى نفس سياق معالجتهم لمشكلات فلسفة العلم كما يفعل فيرابند.

أولاً: فيرابند ونقد المنهج العلمي:

يبدأ فيرابند كتابه المعروف "ضد المنهج" باعترافه أنه ينوي الحديث عن نوع من الفوضوية المعرفية، فالعلم ذاته، في رأيه، عمل فوضوي!

العلم أساسا عمل فوضوي: والفوضوية النظرية أكثر منه إنسانية ومن المرجح أن تشجع التقدم أكثر من البدائل المنهجية المتمثلة في القانون والنظام. (Feyerabend, 1984, P. 17)

وإذا كانت الفوضوية غير مرغوبة في مجال الفلسفة السياسية، فإنها في رأي فيرابند أفضل علاج لنظرية المعرفة العليلة، بل ولفلسفة العلم ذاتها. ولكن ماهي أهم ملامح هذه الفوضى المنهجية التي يتحدث عنها فيرابند ويدعونا للأخذ بها؟ وهل هي حقاً أفضل علاج ممكن لنظرية المعرفة؟

يستهل فيرابند فوضويته المنهجية بالهجوم على مناهج البحث التقليدية في كافة صورها التي يروج لها فلاسفة العلم ويحاولون إقناعنا بأنها الفيصل بين العلم وغيره من ألوان الفكر الإنساني، فالعلم في رأي هؤلاء الفلاسفة والعلماء يتقدم من خلال جمع الوقائع ثم استدلال النظريات منها. غير أن هذه الإجابة التقليدية لماهية المنهج لا تبدو مقنعة لأحد لأن النظريات لا تلزم عن الوقائع بالمعنى المنطقي الدقيق. ولا يصلح مفهوم التأييد أو التعزيز أيضا للدفاع عن منهج العلم، بل أن فيرابند يرى أنه لا يوجد الآن من يحاول الدفاع عن مثل هذا المفهوم (Feyerabend, 1987, P. 158).

ولكن إذا كان الأمر كذلك، فما هو المنهج الأمثل للعلم؟ يصدمنا فيرابند بالقول بأن العلم ليس له منهج خاص به يميزه عن أي نشاط فكرى آخر، أو يجعله يستحق درجة أكبر من الاحترام باعتباره يقدم معرفة حقيقية صادقة:

تواجه فكرة وجود منهج علمي يتضمن مبادئ صارمة لا تتغير وملزمة إلزاما مطلقا صعوبات جمة عند مقارنتها بنتائج البحث التاريخي... إذ لا توجد قاعدة واحدة، مهما بدت ممكنة، أو مستندة إلى أسس ابستمولوجية راسخة إلا وتم تجاوزها في وقت من الأوقات (Feyerabend, 1984, p. 23)

ولا يرى فيرابند أن تجاوز أو مخالفة قواعد المنهج العلمي أمرًا عارضًا أو يحدث في حالات نادرة، ولا هو نتيجة لنقص في معارفنا أو لأمر يمكن تداركه أو التغلب عليه، بل

(ISSN: 2536- 9555)

يرى على العكس أن هذا التجاوز ضروري لتقدم العلم (Feyerabend, 1984, p. 23).

ويمضي فيرابند في ضرب أمثلة عديدة من تاريخ العلم ليبرهن بها على مقولته السابقة وليبرهن على أنه: "مهما بدت لنا قواعد المنهج التي يتشدق بها فلاسفة العلم ضرورية وأساسية فهناك دائما ظروف تستدعي ليس فقط تجاهل هذه القواعد، وإنما تبني عكسها". (Feyerabend, 1984, p. 23)

وفي كتابه ثلاث محاورات في المعرفة يبدو أن فيرابند يدافع عن التنجيم، وهو في حقيقة الأمر لا يقصد ذلك، وإنما يقصد عدم وجود حجج قوية لتفنيد التنجيم، وأن معظم الحجج المقدمة للهجوم على التنجيم هي مجموعة من المغالطات أشهرها مغالطة الاحتكام إلى السلطة.

فمعظمنا يرى أن علم الفلك علم حقيقي ينتسب إلى العلوم الراسخة، وأن التنجيم علم زائف أو (لا–علم)، غير أن إثبات هذا الحكم ليس بمثل سهولة إصداره. فعلى الرغم من أن ممارسات التنجيم التي تعود بجذورها إلى عصور سحيقة بدأت في الانحسار في فترة سابقة، إلا أنها بدأت هذه الأيام تكتسب أنصارًا حتى من بين المثقفين والعلماء مما جعل العديد من العلماء المستنيرين ذوي الكفاءة العلمية الفعلية يستشعرون الخطر الداهم المتمثل في خداع المنجمين وزعمهم بأن التنجيم علما لايقل شأنا عن غيره من العلوم.

ومن هنا فقد اجتمع عدد ١٨٦ من خيرة العلماء يمثلون اتجاهات علمية متباينة، من بينهم ثماني عشرة من الحاصلين على جائزة نوبل في العلوم، وأصدروا بيانا يفندوا فيه مزاعم المنجمين تحت عنوان اعتراضات على التنجيم:

أضحى العلماء في ميادين بحثية مختلفة في قلق متزايد من جراء القبول المتواتر للتنجيم في أماكن عديدة من العالم. ونرغب نحن الموقعين على هذا البيان– الذي يضم علماء فلك، وعلماء فيزياء الفلك وعلماء في مجالات بحثية أخرى– أن نحذر عامة الناس من مخاطر التسليم اليقيني غير النقدي لنصائح وتنبؤات المنجمين التي يقدمونها للناس سرًا وعلانية وأن على أولئك الذين يميلون إلى الاعتقاد في صدق التنجيم أن يدركوا عدم وجود أساس علمي لمعتقداتهم. لقد آمن الناس قديما بتنبؤات ونصائح المنجمين حيث كان التنجيم جزءًا لا يتجزأ من النظرة السحرية الغيبية للعالم، هكذا

اعتبروا الأجسام السماوية فألًا أو مستقرًا للآلهة ومن ثم فقد ارتبطت لديهم ارتباطًا وثيقًا بما يقع على الأرض من أحداث، كما لم يكن لديهم تصور عن المسافات الشاسعة التي تفصل الأرض عن سائر الكواكب والنجوم. غير أننا نستطيع الآن بعد أن تمكننا، بل وقمنا بالفعل بقياس هذه المسافات، أن ندرك مدى ضآلة مؤثرات الجاذبية وغيرها من تأثير للكواكب البعيدة والنجوم الأكثر بعدًا. وببساطة شديدة من الخطأ تخيل أن يكون للكواكب والنجوم لحظة ميلاد الشخص أدنى قدر من التأثير على رسم مستقبل حياته، كما أنه ليس حقيقيًا أن يكون لمواقع الأجرام السماوية النائية تأثير في تفضيل أيام أو أوقات معينة لوقوع أحداث معينة، أو أن يكون للظروف التي شهدت ميلاد شخص معين تأثير في انسجام أو عدم انسجام هذا الشخص مع غيره من الأشخاص.

لماذا يعتقد الناس في التنجيم؟ (يبدوا أن السبب يكمن) في أن الكثير من الناس يتطلعون في هذا الزمن إلى الراحة (النفسية) التي تترتب على وجود ما يرشدهم عند اتخاذ القرارات، فالناس يرغبون في الاعتقاد في مصير تم تحديده سلفا بواسطة قوى وهمية لا يتحكمون فيها. وعلى الرغم من ذلك، ينبغي علينا، أن نواجه العالم، كما يجب أن ندرك أن مستقبل حياتنا يكمن في داخلنا وليس في النجوم من حولنا.

وقد يظن المرء في زمن انتشار التنوير وذيوع التعليم أنه من غير الضروري أن نقوم بتفنيد معتقدات تقوم على السحر والخرافة، غير أننا نرى أن الاعتقاد في التنجيم يستشري بقوة في المجتمع الحديث. إن أكثر ما يثير مخاوفنا هو الذيوع غير النقدي المتواصل لجداول وتكهنات ورسوم الأبراج السماوية التي تبثها وسائل الإعلام والصحف والمجلات والناشرون ذوي السمعة الطيبة. ولا يؤدي هذا الانتشار إلا إلى الإسهام في استشراء اللاعقلانية والتخلف. إننا نعتقد أن الوقت قد حان للتصدي المباشر والقوى للمزاعم الرائجة لشعوذة المنجمين.

وينبغي أن يكون واضحا لأولئك السادرين في غيهم معتقدين في صدق التنجيم أن يدركوا أنهم يؤمنون في معتقدات لا يوجد أدنى أساس علمي محقق لها بل على العكس هناك في حقيقة الأمر شواهد قوية تفندها.

توقيعات... (محمد أحمد السيد، التمييز بين العلم واللاعلم، منشأة المعارف- الإسكندرية، ١٩٩٨، ص٢٠).

(ISSN: 2536- 9555)

انتقد فيرابند البيان السابق لغلبة النغمة التوجيهية الخطابية على عباراته ولجوئه إلى التهديدات السلطوية، وعدم احتوائه على حجج قوية، وانتهى إلى أن: أولئك الذين وقعوا على البيان لا يعلمون عن أي شيء يتحدثون.

ولا يقصد فيرابند بالطبع، الدفاع عن ممارسات المنجمين، ولكنه يحاول أن يبين عدم وجود معيار مقنع حاسم يمكن أن يستبعد التنجيم من حلقة العلم.

ولكن إذا كان الأمر كذلك فما هي معايير التقدم العلمي؟ وكيف يمضي العلماء في أبحاثهم وكشوفهم؟ يرى فيرابند أنه لا توجد معايير أو مقاييس ترشد العلماء خلال مراحل نمو النظريات العلمية. وعلى العلماء أن يتبعوا خيالهم، أو بحسب تعبيره ما يبدو لهم "مهمًا" ومثيرا" (Kleiner, 1979, p. 286). والسبب في عدم إمكان القول أو الأخذ بمنهج علمي محدد يعود، في رأيه، إلى أن العلم ليس نشاطا عقلانيا خالصا. فالتقدم العلمي هو **إزاحة** لنظريات قائمة لتحل محلها نظريات جديدة، وغالبا ما تتضمن هذه العملية عناصر "لاعقلانية" لا يمكن تبريرها. والعلماء الذين ينجحون في إحراز أي تقدم هم أولئك الذين يفكرون بطريقة تخالف الحدس أو ما هو مألوف، أي تختلف طريقتهم في التفكير عن معايير الفكر السائدة في فترة من الفترات.

وهكذا نجد أن جاليليو أُتهم "باللاعقلانية" حين حاول أن يدافع عن نظرية كوبرنيكوس، في حين لم يتهم معارضوه بنفس التهمة لأنهم نظروا إلى الأمر من وجهة النظر الأرسطية التقليدية السائدة في الفيزياء والكوزمولوجيا. وكانت نظرية أرسطو تعتمد أساسا على "الحس المشترك" في البرهنة على افتراضاتها الأساسية. فالأرض لا يبدو أنها تدور، من ثم فهي ثابتة، وافتراض عكس ذلك يعد من قبيل اللامعقول، وعندما جاء جاليليو ليعارض هذا الرأي لم يكن أمامه لإثبات صدق حجته سوى أن يلجأ إلى الدعاية أو البروباجندا والحيل السيكولوجية على حد تعبير فيرابند. (Oldroyd,1986, p. 336)

ويدافع فيرابند عن معارضي جاليليو حيث يرى أنهم كانوا أكثر منه اتساقا، فقوانين الطبيعة تختلف، طبقا لنظرية أرسطو، باختلاف أجزاء الكون. ومن هنا فقد أعتقد أتباع أرسطو في اختلاف القوانين الفيزيائية الخاصة بما يدور في المنطقة التي تعلو سطح القم The superlunary realm عن تلك التي تسود في مجال ما تحت سطح القمر

sublunary realm، فالحركة الطبيعية للأجسام الكائنة أعلى سطح القمر دائرية تختلف عن الحركة التي نصادفها في خبرتنا اليومية في مجالنا الأرضي. وهكذا عندما حاول جاليليو أن يؤيد باستخدام التلسكوب فرض كوبرنيكوس الشمسمركزي heliocentric hypotheses من خلال ملاحظاته عن أوجه كوكب الزهرة، وجبال القمر، وتوابع المشترى، فإن العلماء الذين أخذوا بنظرية أرسطو ظنوا أن المشاهدات التي قد يجمعها الشخص باستخدام التلسكوب عن الأجرام السماوية لا تتلاءم بالضرورة مع المشاهدات التي تتعلق بحركة الأرض، لاختلاف المجالين، كما سبق أن نوهنا. ومن هنا فقد رأى الأرسطيون أن الأدلة التي جمعها جاليليو باستخدام التلسكوب "لاعقلانية"، بل ورفضوا النظر في تلك الأدلة التي لا تعبر عن قوانين السماء في رأيهم. فما الذي يحملهم على أن يضيعوا وقتهم وجهدهم بحثا عن أدلة لا علاقة لها أصلاً بالمشكلة؟ وينتهي فيرابند من هذا التحليل إلى أننا لا نستطيع وصف هؤلاء المعارضين باللاعقلانية، وإنما نستطيع وصف جاليليو بهذه الصفة!

ومن القواعد المنهجية الأخرى التي يهاجمها فيرابند التمييز التقليدي بين سياق الكشف وسياق التبرير The Context of Discovery vs. the context of Justification. فدراسة المنهج العلمي، وفقا لوجهة النظر السائدة في مجال فلسفة العلم، تشمل مجالين مختلفين. يتعلق الجانب الأول منها بمحاولة اكتشاف قواعد وتقنيات أو وسائل تستخدم في الكشف عن النظريات. أما الجانب الثاني فيختص بدراسة المبادئ الموضوعية لتبرير وتقييم النظريات المتنافسة في ضوء الأدلة المتاحة. وقد كان الاتجاه الأول موضع شك ورفض من معظم مدارس فلسفة العلم المعاصرة. فقد رأى هؤلاء الفلاسفة، على اختلاف توجهاتهم، أنه بينما يمكن اعتبار دراسات موضوع التبرير مشروعة وهامة، فلا توجد لدينا دراسات منظمة أو مفيدة في مجال الكشف. إذ تقع دراسة مثل هذه الموضوعات ضمن نطاق عمليات الحدس والإلهام، والحظ أو عدم الحظ والتخمين وغيرها، وكلها أمور يصعب إخضاعها للقوانين أو حتى للدراسة المنهجية. وهكذا نجد أن التمييز بين هذين السياقين كان أحد المبادئ الأساسية لمدرسة دائرة فيينا. يقول هربربت فيجل أحد أعلام هذه المدرسة:

ثمة فرق بين أن نقتفي الأصول التاريخية، والنشأة السيكولوجية، والظروف الاجتماعية والسياسية- الاقتصادية لقبول أو رفض النظريات العلمية؛ وبين أن نقدم إعادة بناء منطقي للبناء التصوري ولاختبار النظريات العلمية (Feigl, 1970, p. 4)

ويشترك بوبر أيضا مع الوضعين في القول بالتمييز بين سياق الكشف وسياق والتبرير. غير أن أول فيلسوف صاغ هذا التمييز في صورة واضحة هو هانز ريشنباخ Reichenbach الذي استخدم تعبير سياق الكشف وسياق التبرير لأول مرة في كتابه الخبرة والتنبؤ Experience And Prediction عام ١٩٣٨، وقد أراد ريشنباخ من وراء التمييز الحاسم بين هذين السياقين التأكيد على عدم طريقة لاكتشاف النظريات، وعلى أن عملية الكشف قد تكون موضع اهتمام علم النفس والتاريخ، لا الفلسفة، وقد أنتهي إلى أن نظرية المعرفة تهتم فقط بسياق التبرير.

ولم يكن فيرابند في واقع الأمر هو الفيلسوف الوحيد الذي اعترض على التمييز الحاسم بين سياق الكشف وسياق التبرير، فمعظم الاتجاهات النسبوية المعاصرة في فلسفه العلم لا تأخذ بهذا التمييز. ومن بين هؤلاء نجد فيلسوف العلم المعروف توماس كون، وشابير Dudley Shapere الذي يعتقد أن سياق الكشف وسياق التبرير ليس سوى وجهان متقابلان لعملة واحدة، أو يسيران جنباً إلى جنب على حد تعبير كارل همبل Hempel. ومن هنا يرى أن:

من الأخطاء الجسيمة فصل سياق الكشف عن سياق التبرير خاصة إذا كان هذا الفصل سيؤدى إلى الاستبعاد الكامل لعملية الكشف من مناهج البحث. (Nickles, 1977, p.576)

غير أن فيرابند يعتبر أول من عارض هذا التمييز بصورة واضحة لا لبس فيها، ويعود اعتراضه على هذا التمييز إلى مقال كتبه عام ١٩٦١ بعنوان: Knowledge Without Foundations. Oberlin College, 1961. يرى فيرابند أن قبول نتائج أي تجربة عملية تختلط بعناصر ذاتية ونزعات شخصية لجماعات العلماء المختلفة. ومن هنا يرى أن التمييز بين هذين السياقين غير حقيقي ومصطنع. إذ لا يمكن أن يكون الكشف مجرد خبط عشوائي، وإنما يتضمن العديد من عناصر الاستدلال المنطقي. كما أن التبرير يتضمن العديد من العناصر الذاتية:

إن التمييز بين سياق الكشف وسياق التبرير غير حقيقي. "فالكشف" لا يكون أبدا قفزة في الظلام، أو حلما... كما أن "التبرير" لا يكون أبدا إجراءً "موضوعيا" تاما. (Feyerabend, 1993, P.14)

ولم يكتفي فيرابند بإنكار التمييز بين سياقي الكشف والتبرير، وإنما ذهب إلى عدم وجود تمييز بين العلوم الفيزيائية والعلوم الإنسانية. فالعلوم كلها إنسانيات بمعنى من المعانى، كما أن الإنسانيات تتضمن معرفة لا يمكن إنكارها.

وينتهي فيرابند في نقده لقواعد المنهج العلمي إلى رفض فكرة وجود منهج علمي، كما سبق ونوهنا، والقاعدة الوحيدة التي يزعم فيرابند أنه يقبلها هي شعاره المثير للجدل كل شئ يمر Anything goes (كله ماشي) وهو بحسب تعبيره المبدأ الوحيد الذي يقبله والذي لا يعوق تقدم العلم. وسنحاول من جانبنا أن نبين أنه رغم تصريح فيرابند بذلك إلا أن هناك مبادئ أخرى يقبلها ويسلم بها فيرابند أحيانًا.

وهكذا يتضح لنا أن فيرابند أكثر راديكالية في نقده للعقلانية والمنهج العلمي التقليدي من توماس كون. فعلى الرغم من اتفاق أو تلاقى أفكار كون وفيرابند في مواضع عديدة إلا أن هناك اختلافات جوهرية بينهما لا يمكن إنكارها. فتوماس كون وفيرابند يختلفان مع كارل بوبر في تصوره لعقلانية التغير العلمي، إذ أن فيرابند لا يؤمن بهذه العقلانية أساسًا، أما توماس كون فينظر إلى التغير العلمي من نموذج إلى آخر باعتباره نقله صوفية لا يمكن التحكم فيها من خلال قواعد عقلية، وإنما تقع برمتها داخل إطار سيكولوجيا وسوسيولوجيا الكشف العلمي لا داخل منطق الكشف العلمي كما هو الحال عند بوبر. ومن هناك كان التغير العلمي عند كون لونًا من ألوان التحول الديني، كما يقول لاكاتوش:

Scientific change is a kind of religious change. (Lakatos, 1960, P.93)

وتلعب العوامل الخارجية غير المنطقية دورا هاما عند كون حتى فيما يتصل بقبول أو رفض النظريات الجديدة، غير أن كون يسلم على الأقل، وعلى خلاف فيرابند، بوجود قواعد عامه يعتقد فيها مجتمع العلماء. نعم ربما يكون تطبيق هذه القواعد إشكاليًا، وربما لا ننجح حتى في تقديم تبرير موضوعي لها، ولكنها موجودة على أية حال. أما فيرابند

(ISSN: 2536- 9555)

فيرى عدم وجود محتوى واقعي أو قوة يمكن تجريدها من الممارسة العلمية لتتحول إلى قواعد من هذا القبيل، ومن هنا نراه يرفض محاولات تقييم النظريات موضوعيا على أساس المحتوى أو على أساس احتمال الصدق verisimilitude وذلك لاعتقاده في لاقياسية النظريات. ويقصد فيرابند باللاقياسية incommensurability عدم إمكان المقارنة بين المعارف المتتابعة التي تنتمي إلى نماذج مختلفة. فمراحل العلم المتتابعة تخاطب مشكلات مختلفة، وقد لا تكون هناك مقاييس مشتركة لقياس نجاحها، ومن هنا يطلق عليها فيرابند، ويشترك معه كون، اسم اللاقياسية[٦]. فمصطلح الكتلة mass عند نيوتن، مثلا، قد لا يعني نفس المعنى عند أينشتين، ومن هنا لا يمكن مقارنة النظريتين مقارنة تامة على الإطلاق.

غير أن هذا الاتفاق بين فيرابند وكون حول بعض جوانب مفهوم اللاقياسية وغير ذلك من موضوعات لم يمنع فيرابند من أن يقول أن بعض أفكار كون هامة ولكنها للأسف غامضة وتحتوى على الكثير من اللغو والخلط، بل وأساءت كثيرا إلى فلسفة العلم:

إذا كنت لا تصدقني، أنظر إلى المادة المنشورة. إذ لم يحدث أبداً من قبل أن سيطر على كتابات فلسفة العلم هذا الحشد من المؤلفين العجزة غير الأكفاء أو التافهين المتسلقين، فتوماس كون يشجع أولئك الذين ليس لديهم أدنى فكرة عن سبب سقوط حجر من أعلى إلى أسفل أن يتحدثوا بثقة وتأكيد عن المنهج العلمي. وأنا لا أعترض على عدم الكفاءة وإنما يأتي اعتراضي حين تقترن عدم الكفاءة بالسأم والثقة العمياء في الذات. (Feyerabend, 1987, P.160)

أما نقد فيرابند لكارل لبوبر فيأخذ طابعًا هجوميا عدائيا كثيرًا ما لا يكون له تبرير موضوعي. فقد بدأ فيرابند حياته الأكاديمية، كما سبق وذكرت، بالإعجاب الشديد بكارل بوبر، بل وبالتسليم الأعمى بمبدأ القابلية للتكذيب في "دائرة كرافت" التي أسسها. ثم بدأ حياته العلمية والعملية مع كارل بوبر، غير أنه سرعان ما انقلب انقلابا شديدا على

---

[٦] يجب الإشارة إلى أن هناك اختلافات جوهرية بين تصور كل من توماس كون وبول فيرابند لمفهوم اللاقياسية. لمزيد من التفاصيل ارجع إلى: Feyerabend, P., 'Reply to Criticism' In Boston Studies in the Philosophy of Science, 1965

أفكار وشخصية بوبر، حتى أنك لا تكاد تطالع أحد كتابات فيرابند الأخيرة دون أن تجد هجوما شديدًا، ومبالغا فيه في بعض الأحيان، على أفكار بوبر. إذ يذهب فيرابند إلى أن الكثير من النظريات العلمية لا تقبل التكذيب بالطريقة التي يصفها بوبر. ويعترض أيضا على أن التفنيد– أحد أهم أفكار بوبر– يلعب دوراً أساسيا أو حاسما في تاريخ العلم. فالعلماء لا يتخلون عن نظرياتهم لمجرد تعارض بعض الوقائع معها، كما يزعم بوبر. فإذا كان بوبر يؤكد على رفض أو استبعاد النظريات فإن فكرة فيرابند الأساسية هي استبقاء النظريات والإكثار منها. وإذا كان فيرابند لا يتحدث عن "النموذج" كما يتحدث توماس كون فإنه يشير إلى أن النظرية قد تطوق بعدد كبير من النظريات المساعدة القديمة أو المفندة التي يدعونا بوبر للتخلي عنها. ومن هنا قد تبدو لنا نظرية معينة كاذبة، بينما يتضح لنا بعد فترة من خلال النظريات الأخرى المساعدة أنها ليست كذلك.

وينتهي فيرابند إلى القول بأن قواعد بوبر المنهجية لا تساهم في نمو المعرفة وإنما في واقع الأمر تعوق هذا النمو. وهذه القواعد، باختصار، لا فائدة لها بالنسبة للعلم:

...(t)hey are useless as an aid to science. (Feyerabend, 1987, p.160)

ويدلل على حجبته السابقة بالقول بأنه:

لو تخيلنا أن كلا من كوبرنيكوس وجاليليو طبقا، بصورة متسقة أمينة، قواعد بوبر المنهجية لكنا لا نزال نعيش في مرحلة الفيزياء الأرسطية حتى الآن. Johansson, (1975, p. 147)

ولا يكتفي فيرابند بنقد مناهج البحث عند كارل بوبر فقط، بل يهاجم أيضا الفلسفة النقدية التي ينتمي إليها بوبر:

لا يوجد حدث هام واحد في تاريخ العلم يمكن تفسيره من خلال منهج بوبر كما لا توجد محاولة واحدة لدى هؤلاء النقديين لرؤية العلم من منظور صحيح. إن هذه الفلسفة ليست سوى خادم مخلص غير فاهم للعلم.(Feyerabend, 1993, p. 143)

ومن هنا لا يوافق فيرابند على رفض الفروض المساعدة التي قد تتعارض مع النتائج التجريبية للنظريات كما يقول بربر، بل يوافق على عكس ذلك على قبول الفروض التي تبدو متناقضة مع نفسها. ويضرب على هذا النوع من الفروض عده أمثلة من نظرية كوبرنيكوس. (راجع في ذلك Bunge,1964)

(ISSN: 2536- 9555)

وينتهي فيرابند من نقده للوضعيين وبوبر وكافة الاتجاهات الأخرى في فلسفة العلم إلى النتيجة التي سبق وصرح بها مرارا وهي أنه من المستحيل القول بأية قواعد منهجية عامة للبحث العلمي:

إذا تأملنا التاريخ الماضي، فسوف نجد أنه في مقابل كل قاعدة نريد الدفاع عنها، توجد ظروف يتحقق فيها التقدم بكسر هذه القاعدة. وهذا يعنى أن مناهج البحث تقدم لنا في أحسن الأحوال قائمة مشوشة من القواعد التقريبية وأن المبدأ الوحيد الذي يمكن أن نثق فيه في كل الظروف هو كل شيء يمر. (Colodny, 1970, p. 278)

وإذا كان فيرابند يصرح بعدم وجود قواعد منهجية، أو بعدم جدوى هذه القواعد، فأنه يبدي أحياناً استعداداً للدفاع عن بعض المبادئ الأقل تطرفًا وحدة. استمع إليه حين يقول:

ليس غرضي هو استبدال مجموعة من القواعد العامة بمجموعة أخرى مختلفة، وإنما غرضي هو إقناع القارئ بأن مناهج البحث برمتها، حتى أكثرها وضوحاً له حدوده. (Kleiner. 19, P.287)

من هنا نجد أن فيرابند يتحدث أحيانا عن قبول بعض القواعد المنهجية المساعدة أو السماح للنظريات بمساحة للتنفس، أن صح التعبير، أو فرصة لأن تتبلور في صورة تسمح لها بالتقدم. من هنا نجده يسلم بمبدأين أساسيين ويأمل في أن يأخذ العلماء بهما من أجل تقدم العلم. المبدأ الأول هو وفرة النظريات The principle of proliferation، والثاني هو مبدأ التشبث The principle of tenacity يتمثل المبدأ الأول، على حد تعبير فيرابند، في:

اختراع وتطوير نظريات لا تتسق مع وجهات النظر المقبولة، حتى وإن كانت هذه النظريات المقبولة عالية التأييد وتحظى بقبول عام.(Feyerabend, 1965, p. 223)

أما مبدأ التشبث فيتمثل في:

... النصح باختيار نظرية تعد بالوصول إلى أفضل النتائج المثمرة، والتشبث بها حتى إذا كانت تواجه صعوبات كبيرة.(Feyerabend ,1970, p. 203)

من الواضح أن المبدأين السابقين يتفقان في روحهما مع مبادئ فيرابند التي سبق وتحدثنا عنها. ومن هنا نجده يوصي بضرورة الأخذ بأكبر عدد من النظريات حتى إذا

كانت هذه النظريات غير متسقة مع بعضها البعض، بحيث يكون لكل واحدة منها أنصار ومدافعين يعتقدون في صدقها، ويحاولون التغلب على الانحرافات التي تصادفها. ومن الهام هنا أن نشير إلى أن فيرابند يستخدم كلمة نظرية بصورة شديدة العمومية لتشمل أمورا كثيرة:

عندما أتحدث عن النظريات فأنا أعني أنها تتضمن الأساطير، والأفكار السياسية، والمذاهب الدينية، كما أرى أن تعبير "وجهة نظر"، ينطبق على الأقل على بعض جوانب كل ما هو موجود. (Feyerabend,1965,p. 252)

من هنا يرى فيرابند أن وفرة النظريات المتنافسة والمتعارضة، أو غير المتسقة، وليس الشذوذ أو الانحرافات كما هو الحال عند كون، هي التي تقود إلى ما يطلق عليه كون مرحلة الأزمة crisis. ويسوق فيرابند أمثلة عديدة يدافع فيها عن النظريات غير المتسقة، فيقول أن قانون جاليليو في سقوط الأجسام لم يكن متسقا مع نظرية نيوتن في الجاذبية (لأن التسارع عند الاقتراب من الأرض يكون ثابتا عند جاليليو، بينما لا يكون ثابتا عند نيوتن). كما أن قوانين كبلر تختلف عن نظرية نيوتن في تفسير تحرك الكواكب في مدارات اهليلجية. وينتهي الأمر بفيرابند إلى رفض فكرة الاتساق ذاتها، حيث يتساءل قائلا ما الخطأ في القول باللاتساق؟

What is wrong with inconsistency?

فكل شئ، في تصوره، ينبع من اللاتساق. ولابد أن هناك خللاً ما في المنطق يجعلنا نشك في أن اللا اتساق يعوق تقدم العلم!! غير أننا نتساءل نحن بدورنا تساؤلا مضادا لتساؤل فيرابند ونقول هل إذا كان اللاتساق يحقق أحيانًا، وفي ظروف استثنائية بعض التقدم، أن نأخذه كقاعدة أو معيار، أو أن ذلك يدعونا لأن نراجع قواعد المنطق التي تعارفنا عليها، أو أن نتخلى عن قانون عدم التناقض مثلاً؟!

يبدو واضحا تهافت فكرة فيرابند في ضرورة الأخذ بالنظريات اللامتسقة وجعلها القاعدة الأساسية عند قبول أو رفض النظريات العلمية. فالاتساق ليس أمرًا يخص كارل بوبر أو فيرابند أو أي فيلسوف وإنما هو بتعبير أحد الفلاسفة:

أحد الاعتقادات الراسخة في الحس المشترك والتي تقوم على الحدس القائل بأن أي تفسير غير مترابط أو متسق يفشل في التفسير.(O'gorman, 1989, p. 56)

(ISSN: 2536- 9555)

ويبقى في النهاية سؤال أساسي حول فلسفة فيرابند ذاتها؛ فإذا كان فيرابند نفسه يتردد كثيرا ويعارض أفكاره التي صرح بها من قبل، ويصف نفسه بصفات سرعان ما يتنصل منها، إذ نراه تارة يقول أنه فوضوي، وتارة أخرى نسبي، ثم يصرح بأنه لا هذا ولا ذاك بل هو دادي(٧) Dadist ويدافع أحيانا عن التنجيم، ثم يعود ليقول أن أكثر ما يثير الملل لديه هو التنجيم، فكيف يمكن لنا وصف هذا الفيلسوف، وإلى أي المذاهب ينتمي فكره؟

من الصعب بمكان الإجابة على السؤال السابق، وأن كنا سنحاول أن نضع إجابة من خلال أعماله خاصة المتأخر منها. فهو لا يستقر في معظم كتاباته على مبدأ معين، أو فكره محددة، وإنما تجده يدافع في بعض المقالات عن أفكار ثم يعود ليهاجمها في مقالات أخرى. وقد أدى ذلك ببعض المعلقين إلى وصفه بأنه فيلسوف نسبي. غير أن فيرابند سارع بالرد بأن معظم الحوار الدائر الآن حول المذهب النسبي سطحي وعاطفي وبعيد عن العقلانية. ومن هنا نجد أن بعض المثقفين الذين يخشون على أدوارهم في المجتمع يسرعون بإبلاغنا، بطريقة دوجماطيقية، بخطورة هذا المذهب وبأن الأخذ به سيؤدي بنا إلى فوضى أخلاقية وسياسية لامحيص عنها.

غير أن فيرابند يميز بين النسبوية الفلسفية، ومذهب الشك، والفوضوية الساذجة **naive anarchism** والفوضوية الابستمولوجية، والنسبوية البروتجورية (نسبة إلى بروتجوراس) وهو يرفض معظم الأوصاف السابقة، وإن كان يمتدح أحيانًا الفوضوية المعرفية ونسبوية بروتجوراس. فهو يذهب إلى أن الفوضوية المعرفية ليست سوى علاجا ممتازًا لنظرية المعرفة العليلة ولفلسفة العلم على وجه العموم. فنظرية المعرفة في رأيه مريض يحتاج إلى العلاج، وهذا العلاج يتمثل في الفوضوية المعرفية، وبعد أن يستجيب المريض للدواء ويبرأ من أسقامه فقد ينتهي عندها المرض وتنتهي الحاجة إلى العلاج. من هنا فهو لا يعني أن تصبح فلسفة العلم فوضوية بلا قيد أو شرط. إذ بعد مرحلة

---

(٧) الدادية حركة أدبية فنية عالمية راجت فى أوائل القرن العشرين ١٩١٥-١٩٢٢ كان من أهم مبادئ الدادية القول بأن الفن والأدب لا يعتمد على أية قواعد، وأن القانون الوحيد المقبول هو الصدفة والحقيقة الوحيدة المقبولة هى الخيال. ولا عجب إذن أن يتبنى فيرابند أفكار هذه الحركة لاقترابها من فلسفته. لمزيد من التفاصيل ارجع إلى Mothewell, R., Ed. , The Dada Painters and Poets. 1989

العلاج والشفاء يمكن أن تعود فلسفة العلم إلى لون من ألوان العقلانية الأكثر تنورا وتحررا.

ويحدد فيرابند الفارق بين النسبوية الفلسفية والفوضوية المعرفية بالقول بأن الأولى هي القول بأن كل التراث التقليدي أو النظريات صادقة أو كاذبة بنسب متساوية. أما الفوضوي فهو "من يؤكد أمورا سخيفة على أمل أن يقود ذلك إلى صور جديدة من صور الحياة".(Feyerabend, P.210)

غير أننا نميل إلى القول بأن فيرابند ينتمي بفكره إلى تراث الشكاك من الفلاسفة. فهو لا يخفي إعجابه بقول بروتاجوراس أن الإنسان مقياس الأشياء جميعا، كما أنه يلجأً إلى نسبية بروتاجوراس عندما يقرر أن التراث التقليدي ليس في حد ذاته جيدا أو رديئا، وإنما فقط موجود، وأنه لا يمكن القول أن له أو ليس له خصائص مفضلة مرغوب فيها عند مقارنته بتراث آخر. كما أن فيرابند يمتدح نسبية بروتاجوراس لأنها تهتم اهتماما كبيرا ومشكورًا بفكرة تعدد القيم والتقاليد دون أن تفترض أن رؤية الفرد الذاتية أو عاداته وتقاليده هي الوحيدة الصادقة، وهي أحد الأفكار المحورية التي ما فتئ يرددها فيرابند في كتاباته.

من هنا نستطيع أن نقول إن فيرابند يستمد أصوله الشكية من التراث الشكي عند اليونان. فالشاك عندما يواجه فكرة أو اعتقادا فإنه يحاول أن يثبتها أو يفندها في نفس الوقت ويمضي في ذلك حتى تتساوى لديه أسباب قبولها ورفضها، وعند الوصول إلى هذا القدر من التكافؤ يجد نفسه مجبرا على التوقف عن الحكم. حقاً أن فيرابند لم يتوقف عن الحكم، بل أن معظم مشكلاته مع معارضيه نشأت من وفرة أحكامه وتطرفها، غير أن النزعة الشكية تتبدى عنده من خلال هجومه ودفاعه عن نفس المبدأ في كثير من الأحيان. بل أنه كثيرا ما يستخدم عبارات تذكرنا على الفور بالشكاك الأوائل:

المعرفة الكلية غير ضرورية وغير متاحة وكل ما هو متاح وجهات نظر مختلفة، تكون صادقة من بعض الجهات فقط. ولا وجود لأي أراء لا ترتبط بتقليد معين. (Feyerabend,1987, p. 61)

من هنا أستطيع أن أقول أن فوضوية فيرابند المعرفية ليست سوى صورة جديدة من صور النزعة النسبوية التي تستمد أصولها من التراث الشكي عند اليونان، أو يمكننا

(ISSN: 2536- 9555)

اعتبارها استعارة لأن الفوضوية كما نعلم ترتبط عادة بالسياسة لا بنظرية المعرفة أو بفلسفة العلم غير أن فيرابند لا يتحمس كثيرا للفوضوية كفلسفة سياسية. فالفوضوية المعاصرة لا تأبه كثيرا للسعادة الإنسانية أو حتى للحياة ذاتها. أما فوضوية فيرابند فيمكن تلخيصها بقول فيرابند "أن لكل القواعد حدود كما لا توجد عقلانية شاملة" (Feyerabend, 1978, p. 32)

غير إننا نقول أن فلسفة فيرابند تقترب من المذهب المعروف في الفن باسم الدادية أكثر من اقترابه من الفوضوية السياسية. فالفوضوي السياسي يرغب في تحطيم أو تنحية بعض الجوانب السائدة في الحياة، بينما يرغب الدادي في ابتكار أشكال جديدة من الحياة الهامة والتافهة أيضا. كما أن الدادي ليس له برنامج فكرى محدد، وأنى يكون له ذلك وهو ضد كل البرامج. ومن هنا فالدادي الحقيقي يكون أحيانا ضد الدادية ذاتها! (O'gorman, 1989, P.54). غير أن دادية فيرابند لا يمكن اختزالها أو ردها إلى هذه الحركة الفنية الضيقة لأن هذا ينطوي على ظلم كبير لأفكار فيرابند، وإنما يمكن القول أن الدادية تشكل مع العناصر الأخرى، وأهمها التراث الشكي عند اليونان، اللبنات الأساسية في البناء الفكري عند فيرابند.

ثانياً الدفاع عن المجتمع ضد السلطوية:

يذهب فيرابند إلى أن العلم لا يتمتع بأي ميزة أو مكانه تجعله يتفوق على الأنشطة والفعاليات الفكرية الإنسانية المختلفة. من هنا نراه يدافع عن المجتمع ضد كل الأيدلوجيات، والعلم من بينها، بل قل هو على رأسها. وهو يرى أننا يجب ألا نتعامل مع هذه الأيدولوجيات باهتمام كبير أو نعطيها قدراً أو حجماً أكبر مما تستحق، بل ينبغى أن نقرأها كما نقرأ الحكايات الخيالية. نعم لقد كان العلم في مقدمة الحرب ضد السلطوية وديكتاتورية التخلف والخرافة. ونحن ندين للعلم بتحرير الجنس البشري من نير الاستبداد وطغيان أصحاب الأفكار القديمة البالية. كما ندين له أيضا بالحرية الفكرية المتزايدة، حتى أضحى العلم والتنوير صنوين أو اسمين لشيء واحد. غير أن هناك مفارقة محزنة في الأمر ينبهنا إليها فيرابند. فنحن (يقصد بذلك من يعيشون في المجتمعات الغربية الديمقراطية بالطبع) الآن نستطيع أن ننتقد ما نشاء وكيفما نشاء باستثناء العلم. فكروبتكن Kropotkin، على سبيل المثال، يريد التخلص من كافة المؤسسات التقليدية وكل أنواع الاعتقادات غير أنه يستثني العلم من ذلك. كما ينتقد إبسن Ibsen أهم

أيدولوجيات القرن التاسع عشر ماعدا العلم، بل وحتى ليفي شتراوس Levi-Strauss الذي جعلنا ندرك أن الفكر الغربي ليس هو القمة المتفردة للإنجازات الإنسانية، كما كان الغرب يعتقد، استثنى العلم أيضا من هذه النسبوية الأيدلوجية. (Feyerabend, 1984, p. 302)

ويرى فيرابند أن أي أيدلوجيا تحطم النظام الشمولي للفكر تساهم بذلك في تحرير الإنسان. كما أن أيدلوجيا تقود الإنسان إلى الشك في المعتقدات الموروثة تكون عونا للتنوير. إن الحقيقة التي تسود دون اختبار ومقارنة تشبه الطاغية الذي يجب الإطاحة به بل وأن الكذب أو الزيف الذي قد يساعدنا في الإطاحة به لهو محل ترحيب عند فيرابند. (Feyerabend, 1987, p. 156). ولا عجب في هجوم فيرابند على كل ما يجور على المساواة بين الثقافات في كافة المجالات، والمجتمع الحر في رأيه ليس هو المجتمع الذي يحاول فرض قيمه الثقافية على الثقافات الأخرى المستضعفة وإنما هو: "المجتمع الذي يكون فيه لكل التقاليد والثقافات حقوق متساوية بغض النظر عن تصور الثقافات الأخرى لها".(Feyerabend, 1993, P. 128)

وإذا كنا نسلم بأن العلم الذي ساد في القرنين السابع عشر والثامن عشر كان بحق أداة للتنوير والتحرر، فمن غير الملزم أن العلم سيظل دائماً أداة للتحرر أو التنوير. فليس ثمة سمة موروثة في العلم، أو في أي أيدلوجيا أخرى، تجعله أداة دائمة للتحرر والتنوير. فالعلم، شأنه في ذلك شأن أي أيدلوجيا أخرى، قد يؤدي إلى الخراب، والتدمير، ومن ثم قد يتحول إلى ديانة غبية جاهلة. ويدلل فيرابند على وجهة نظره السابقة بدعوتنا إلى النظر في مناهج العلم كما يتم تدريسها اليوم. "فحقائق" العلم يتم تلقينها في مرحلة مبكرة بنفس الطريقة التي كانت تلقن بها "حقائق" الدين منذ قرن مضى في أوربا. ولا توجد محاولة لإيقاظ القدرات النقدية عند التلاميذ كي يستطيعوا أن يروا الأمور من منظور خاص بهم. والأمر في الجامعات، في رأى فيرابند، أكثر سوءاً. فالتلقين في الجامعات يأخذ طابعاً أكثر تنظيما ونمطية. ولا يزعم فيرابند غياب النقد بالكامل، فالنقد موجود ولكن له حدود فأنت تستطيع أن تنتقد أمورا كثيرة من بينها النظام السياسي ومؤسسات المجتمع المختلفة، ولكن كما سبق وذكرنا، يستثنى من ذلك العلم.

وتقابل أقوال العلماء وتصريحاتهم في المجتمع، غالبا، بنفس التوقير والاحترام الذي كانت تلقاه أحكام رجال الدين والفقهاء منذ أمد ليس ببعيد. واليوم أصبح العلم يماثل في

(ISSN: 2536- 9555)

استبداده الأيدولوجيات التي جاء أصلا ليحاربها ويخلصنا منها. ولكن ما السبب في هذه المعاملة الخاصة جدا التي يلقاها العلم على الرغم من كونه مجرد أيدلوجيا بين أيدولوجيات عديدة لا يتفوق عليها في شيء؟ يرى فيرابند أن السبب يكمن في الاعتقاد (الخاطئ) بأن العلم ليس مجرد أيدلوجيا وإنما ينظر إليه باعتباره مقياس "موضوعي" للحكم على كافة الأيدولوجيات الأخرى، وهي فكرة ما فتئ فيرابند يكرر عدم صوابها في العديد من كتاباته. إذ لا يمتلك العلم منهجا خاصا به يضمن له النجاح أو حتى احتمال النجاح. والسبب الحقيقي في نجاح العلماء أحيانا في حل المشكلات لا يرجع إلى امتلاكهم عصا سحرية يطلق عليها مناهج البحث، أو نظرية محددة في العقلانية، وإنما يكمن سر نجاحهم في أنهم يدرسون المشكلات المطروحة دراسة كافية ولفترات زمنية طويلة، ولأنهم يعرفون الموقف الذي أمامهم ويحيطون بتفاصيله إحاطة شاملة.

وإذا كان الأمر كذلك فكيف نتعامل مع النظريات العلمية؟ يصدمنا فيرابند مرة أخرى باقتراح عجيب لا يملك المرء إلا أن يرفضه. إذ يذهب إلى أن أفضل طريقة للتعامل مع النظريات العلمية هي أن نعطي الناس الفرصة لأن يدلوا برأيهم فيها عن طريق الاقتراع الحر في انتخابات نزيهة!! فنحن، على حد قوله، نقبل القوانين والوقائع العلمية، ونعلمها في مدارسنا ونجعل منها أساسا لاتخاذ القرارات السياسية الهامة، لكن دون أن نخضعها أبدا للتصويت، وربما كان من الأفضل أن أضع أمام القارئ نص كلمات فيرابند:

We accept scientific laws and scientific facts, we teach them in our schools, we make them the basis of important political decisions, but without ever having subjected them to vote. (Feyerabend, 1984, P. 301)

فالمجتمع الحديث، في رأيه، كوبرنيكي "ليس لأن الكوبرنيكية ثم وضعها موضع الاختيار الحر عن طريق أخذ الأصوات، أو لأنها خضعت لحوار ديمقراطي تم في نهايته التصويت عليها وحازت على أصوات الأغلبية، وإنما هو كذلك لأن العلماء وحدهم يؤمنون بنظرية كوبرنيكوس ولأن الناس يقبلون ما يقوله العلماء بصوره غير نقدية لا تختلف كثيرا عن الطريقة التي كانوا يقبلون بها من قبل آراء الأساقفة ورجال الدين.

ولا يستطيع المرء بالطبع إلا أن يعارض فيرابند في اقتراحه العجيب بأخذ الأصوات عند قبول أو رفض النظريات العلمية، وليس لنا، في رأيي، أن ننظر إليه إلا باعتباره

دعابة ثقيلة من الدعابات التي يطلقها فيرابند أحيانا ربما بقصد إلقاء بعض الأحجار في بحر فلسفة العلوم الراكد. ويذكرنا ذلك أيضا بمحاولة فيرابند المساواة بين منجزات الطب الحديث ومنجزات الطب التقليدي، كالوخز بالإبر الصينية والمداواة بالسحر وغيرها، وهي مقارنة ظالمة للطرفين على الرغم من دفاع فيرابند المجيد عنها.

ومن الأمور الأخرى التي نعارض فيرابند فيها والتي يدافع عنها بحرارة هو تأكيده على أهمية الأساطير في مقابل النظريات العلمية وزعمه أن الأساطير أكثر صدقا من أكثر النظريات العلمية تقدما. فنحن لا ننكر أهمية الأسطورة كأحد المنابع الأساسية لكافة الأيدولوجيات، بما فيها العلم، غير أن فيرابند لا يساوي فقط بين أهمية الأسطورة والعلم، وإنما يذهب إلى أن:

إنجازات واضعي الأسطورة في العصور السابقة أفضل من إنجازات العلماء في كافة العصور وأن مخترعي الأسطورة الأوائل بدأوا الحضارة بينما اكتفي العلماء بتغييرها، وليس إلى الأفضل دائما. (Feyerabend, 1993, P. 113)

هكذا فإن فيرابند بدأ في الثمانينيات في توسيع نطاق أفكاره. وبحلول بداية الثمانينيات، كانت فلسفة العلم مجالًا أكثر ثراءً، لذلك انتقل فييرابند إلى قضايا جديدة. لقد أذهله أن ثقة الجمهور في العلوم بدأت تتغير في الثمانينيات. إن الحادثتين النوويتين في تشيرنوبيل وثري مايل آيلاند Chernobyl and Three Mile Island، وتراجع الاهتمام ببرنامج الفضاء، والمطالبات الجديدة الطموحة لصالح علم الوراثة، بدأت تؤثر على ثقة الجمهور في العلوم. لم يكن فييرابند يعارض مثل هذه الشكوك العامة، لكنه كان يشعر بالقلق من أن المخاوف العامة، على الرغم من صدقها، كانت في كثير من الأحيان غير مدروسة. والأسوأ من ذلك هو أن هذه المخاوف غالبًا ما يتم تضخيمها من قبل الفلاسفة المفرطين في الحماس الذين، في رأيه، كانوا يفشلون في مهمتهم في توضيح المفاهيم، والتدقيق في الحجج، ومساعدة الناس على التعبير عن أفكارهم وتطويرها. بحلول أواخر الثمانينيات، بدأ فييرابند في تناول قضية خاصة مع الفلاسفة الذين شجعوا بنشاط مثل هذه الالتباسات، على سبيل المثال من خلال الإعلان عن أن الإلكترونات والجينات كانت مجرد "بُنى اجتماعية"، أو عن طريق إعادة تسمية أشكال النسبوية، أو عن طريق توريط "العلم الغربي" في نظرية مؤامرة قوية لإضعاف ثقافات

(ISSN: 2536- 9555)

السكان الأصليين– في الواقع، استسلم فييرابند نفسه لمثل هذا اللون من الجدال المُغري لبعض الوقت، وهو ما يفسر جزئياً رد فعله العدائي تجاههم لاحقًا.

(Feyerabend P (1987) Farewell to reason. London: Verso.)

لقد أصبح فيرابند أكبر أعداء النزعة العلموية Scientism التي تذهب إلى أن العلم بمقدوره الإجابة على كل الأسئلة والمشكلات الإنسانية بما فيها المشكلات المتعلقة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية. ويرى أنصار هذه النزعة المتطرفة أن المشكلات الجديرة بالبحث والتقصي هي فقط المشكلات التي لها معنى محدد على طريقة الوضعية المنطقية. هكذا، ترتبت نتائج خطيرة على معالجات مدرسة فلسفة العلم الجديدة وخاصة أقوال بول فيرابند، وتوماس كون؛ فعلى الرغم من الاختلافات الكثيرة بينهما إلا أن النزعات النسبوية Relativism التي سادت مجال فلسفة العلم المعاصرة تُنسب عادة إليهما. وقد ترتب على فلسفتهما أن سادت ساحة فلسفة العلم في فترة تسعينيات القرن العشرين وأوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين معارك فكرية فلسفية أُطلق عليها اسم "حروب العلم" Science Wars، وقد أعادت هذه الحروب اجترار التساؤلات التي كان يطرحها فيرابند ومن أهمها السؤال المتعلق بما إذا كانت النظريات العلمية تزودنا بأوصاف حقيقية موضوعية عن الواقع أم أنها مجرد "مواضعات" أو "بُنى" اعتباطية Constructions، أي مجموعة من الأساطير تُماثل مبحث الإلهيات في الفلسفة اليونانية (Gould, 2000, pp. 253-256)

لا غرابة بعد كل هذا أن يتسرع البعض ويطلق على فيرابند ألد أعداء العلم، وأن يعاديه الكثيرون. ولكننا نتساءل بدورنا هل حقا فيرابند عدو حقيقي للعلم؟ أعتقد أن الإجابة أصبحت الآن أكثر وضوحًا أمام القارئ. إن نسبة كبيرة من كتابات فيرابند تتضمن حججًا منطقية ومعرفية منظمة تقبل المناقشة والرد، وبعضها حجج مُحكمة لها وجاهتها ومنطقها القوي، غير أن هذه الحجج تتوارى أحيانًا أمام شعارات فيرابند الشاذة وعباراته المستفزة العدائية، تلك العبارات التي جلبت له المتاعب من قبل الفلاسفة والعلماء، والتي لم يكن يقصد من ورائها سوى أن تكون بمثابة وصفة علاجية لمداواة أمراض فلسفة العلم المزمنة، خاصة إذا كان هذا الهجوم سيجعلنا نعيد النظر في العلاقة الجدلية السائدة بين رؤية الفلاسفة المثالية إلى العلم وبين خبرة المشتغلين به. لقد بدأ فيرابند منذ مطلع الثمانينيات يعدل من أفكاره حول وظيفة ومعنى العلم. فمع مطلع تلك

الحقبة أضحت فلسفة العلم عموماً أكثر نضجا وأهمية، ومن ثم فقد تحول فيرابند للاهتمام بموضوعات جديدة. لقد بدأ الناس يرتابون في مكانة العلم خاصة بعد حادث انفجار المفاعل النووي السوفييتي في تشرونبيل، وبدأ فيرابند يغير من أسلوبه القديم الساخر، بل وأخذ يدافع عن العلم في ثنايا كتبه. ويمكننا أن نلتمس هذا الأمر بين سطور هذه المحاورات فضلا عن كتاباته الأخرى. لقد اعترض على من يزعمون أن الإلكترونات والجينات مجرد "بُنى اجتماعية"Social constructions، أو من يروجون لفكرة أن العلم الغربي ليس سوى "مؤامرة كونية"؛ نعم ربما يكون فيرابند قد خضع لهذه الأقوال في مرحلة مبكرة، لكنه عاد ليعارضها بشدة في المرحلة المتأخرة من حياته.

كما أننا إذا قرأنا فيرابند بعناية فسنجد أنه على الرغم من شعاره أو قوله برفض قواعد المنهج العلمي، إلا أننا سنكتشف أنه يقصد ألا نقبل أية قواعد بطريقة قبلية **a priori**، وإنما ينبغي أن يكون متاحاً لنا نقد هذه القواعد ومراجعتها لا مجرد تحديدها سلفاً من خلال دراسة حالات معينة. وأخيرا فإن وفرة النظريات وكثرتها التي يحدثنا عنها فيرابند قد يكون لها حقًا فائدة بالنسبة للعلم بينما يكون للاطراد والنمطية التي يرفضهما دورها في تشويه قدرة العلم النقدية وإمكانية تقدمه، تلك الإمكانية التي لم يعارضها فيرابند أو يشكك فيها.

مراجع البحث

- Bunge, M., (1964) The Critical Approach to Science and Philosophy. Glencoe.
- Feigle, H., (1970) ‘The Orthodox View of Theories’. In Radner, M., ed. Analysis of Theories And Methods of Physics and Psychology. University of Minnesota Press. Minneapolis.
- Feyerabend, P.K.,(1965)Reply To Criticism. In Boston Studies in the Philosophy of Science. Vol.2.
- Feyerabend, P. K.,(1968) How To Be a Good Empiricist: A Plea for Tolerance in Matters Epistemological. In Nidditch, P.H. ed. The Philosophy of Science. Oxford University Press.
- Feyerabend, P. K., (1970) Consolation To The Specialist. In Lakatos, I., Criticism And The Growth of Knowledge. Cambridge.
- Feyerabend, P. K.,(1978)Science in Free Society. Verso, New York.

(ISSN: 2536- 9555)

- Feyerabend, P, K.,(1983)Empiricism, Rationality And Scientific Method: Problems of Empiricism, Cambridge University Press.
- Feyerabend, P, K., (1984) Against Method: Outline of an anarchistic Theory of Knowledge. Verso, New York.
- Feyerabend, P, K., (1987a) 'How To Defend Society Against Science'. Hacking., ed. Scientific Revolutions. Oxford University Press.
- Feyerabend, P,K., (1987b) Farewell To Reason. Verso. N.Y.
- Feyerabend, P. K., (1993) Three Dialogues of Knowledge. Basil Blackwell, London.
- Gould S. J (2000) Deconstructing the "science wars" by reconstructing an old mold. Science 287: 253–261.
- Hoyningen-Huene, P., (1994) Obituary of Paul. K. Feyerabend (1924-1994). Erkenntnis Vol.40.no.3.
- Johanson, I.,(1975)A Critique of Karl Popper's Methodology.Scandinavian University Books. Sweden.
- Kleiner, S. A.,(1979) Feyerabend, Galileo And Darwin: How To Make the Best Out of you Have- or Think You Can Get. Studies of History and Philosophy of Science.Vol.10.
- Kuhn,T.S., (1970)The Structure of Scientific Revolutions. Chicago University Press. Chicago.
- Newton-Smith, W,H.,(1981)The Rationality of Science. Routledge and Kegan Paul. London.
- Nickles, T.,(1977) Heuristic and Justification in Scientific Research: Comments on Shapere. In Suppe, F., The Structure of Scientific Theories. Chicago, University of Illinois Press.
- O'gorman. F. P., (1989) Rationality and Relativity: The Quest for Objective Knowledge. Avebury, Aldershot, USA.
- Oldroyd, D., (1986) The Arch of Knowledge. Methuen, New York.
- Popper, K., (1965) Conjectures And Refutations: The Grwth of Scientific Knowledge. Basic Books, New York.
- Stewart, R., (1987) Philosophy And Sociology of Science. Basil Blackwell. London.